الفصل السابع

الإصلاح الكنسي: تحويل الجماهير
(1500 – 1700م)

حاولت كل من حركة الإصلاح البروتستانتية، وردات الفعل الإصلاحية الكاثوليكية، تنقية المسيحية من العناصر الوثنية المسيحية، ففي الوقت الذي تبنت فيه كنيسة العصور الوسطى العقيدة الأرثوذكسية نظرياً، شغلت نفسها عملياً إلى أبعد الحدود بجمع الثروات، وبفرض الطاعة الاجتماعية، وآثرت ذلك على التوجيه الروحي لعامة الناس، وانطلق الإصلاحيون الآن يبشرون بين الشعوب الأوربية ويدعونهم إلى فهم أفضل للمسيحية الأرثوذكسية القويمة، فبإخافة الناس وإرعابهم بقصص عن الشيطان وعن مخاطر السحر، أقنعوا الناس في أن يؤمنوا بإله مسؤول وصاحب سلطة، هو الذي طالب بالنظام وبالصراع، وبالتخلي عن المتع الجسدية.

واحتجاجاً من مارتن لوثر على كنيسة يتعلق اهتمامها الأعظم بجمع الأموال، أكثر من اهتمامها بتعليم ما جاء في الكتابات المقدسة، قام بعمله هذا بتأصيل الإصلاح البروتستانتي، وعندما وضع أطروحاته الخمس والتسعين على أبواب كنيسة بلدته في عام 1517م، رفع لوثر صوتاً انتشر بالطول والعرض، دعا إلى رفض الكنيسة، ووجدت احتجاجاته تأييداً بين الفلاحين المستثمرين والمستغلين، ولدى الذين نادوا بالاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذين رفضوا إرسال الأموال إلى الكنيسة في روما، وتملك الكنيسة لممتلكات كبيرة جداً من الأراضي، وانتشرت البروتستانتية على الفور في جميع أنحاء ألمانيا، وسويسرا والبلاد المنخفضة، وإنكلترا، وسكوتلندا، وممالك إسكندنافيا، وكذلك خلال أجزاء من فرنسا وهنغاريا، وبولندا.

صورة مارتن لوثر وهو يحرق المرسوم البابوي، وكان احتجاجه ضد الكنيسة الكاثوليكية وراء قيام حركة الإصلاح البروتستانتية.

وجاءت استجابة الكنيسة الكاثوليكية بالقيام بإصلاحها الخاص، والذي أطلق عليه اسم الإصلاح المضاد، وقد تمحور حول قرارات وقوانين مجمع ترنت Trent التي اجتمع فيما بين 1545 و1563م، واشتعلت العداوة بين البروتستانت والكاثوليك على شكل سلسلة من الحروب الأهلية في فرنسا، وانكلترا، وكذلك في حرب الثلاثين عاماً الدموية، التي تورطت فيها ألمانيا، السويد، وفرنسا، والدانمارك، وإنكلترا ونزلاند (هولندا)، والإمبراطورية الرومانية المقدسة ممثلة بآل هابسبورغ Haspsburgs، وبما أن الجانبين عدّوا أنفسهم مسيحيين، ولم يخففوا من سفك الدماء، ففي يوم 24 آب عام 1572م على سبيل المثال، فيما بات يعرف باسم مذبحة يوم عيد القديس بارثلميو Bartholomew جرى ذبح عشرة آلاف بروتستانتي في فرنسا، وقد كتب البابا غريغوري الثالث عشر إلى ملك فرنسا شارل التاسع يقول: «نحن نبتهج معك، أنه بعون الرب قد حررت العالم من هؤلاء الهراطقة الأشرار»[1].

ومع ذلك اهتم كل من البروتستانت والكاثوليك وانشغلوا بإقامة مسيحية مؤسسة على العقيدة الأرثوذكسية القويمة، ووجه البروتستانت جهودهم نحو الدعوة إلى ارتباط دقيق بالكتابات المقدسة، واستعانت البروتستانتية بالصحافة المطبوعة وبذلك عبرت الرسالة البروتستانتية عن تماسك وانضباط أكبر، فكانت أقل قبولاً، وأدنى تبنياً للعقائد الوثنية القديمة[2]، واحتلت العقائد القاسية للعهد القديم مكانة أسمى، وذلك بدلاً عن التضرع لمشاركة الرب كصديق معاون في الحياة حسبما استمر كثيرون يعتقدون، وآمن البروتستانت أن على الإنسان أن يكون أكثر اهتماماً بالتوسل إلى الرب وطاعة إرادته الحاكمة، وينبغي النظر إلى يسوع ليس ككائن بشري، به ينبغي الارتباط، بل كجزء من الرب القدير، وأنكر بعض البروتستانت حتى القبول بأن يسوع المسيح قد تجسد على شكل مخلوق بشري، فجسده كان جسداً لاهوتياً[3].

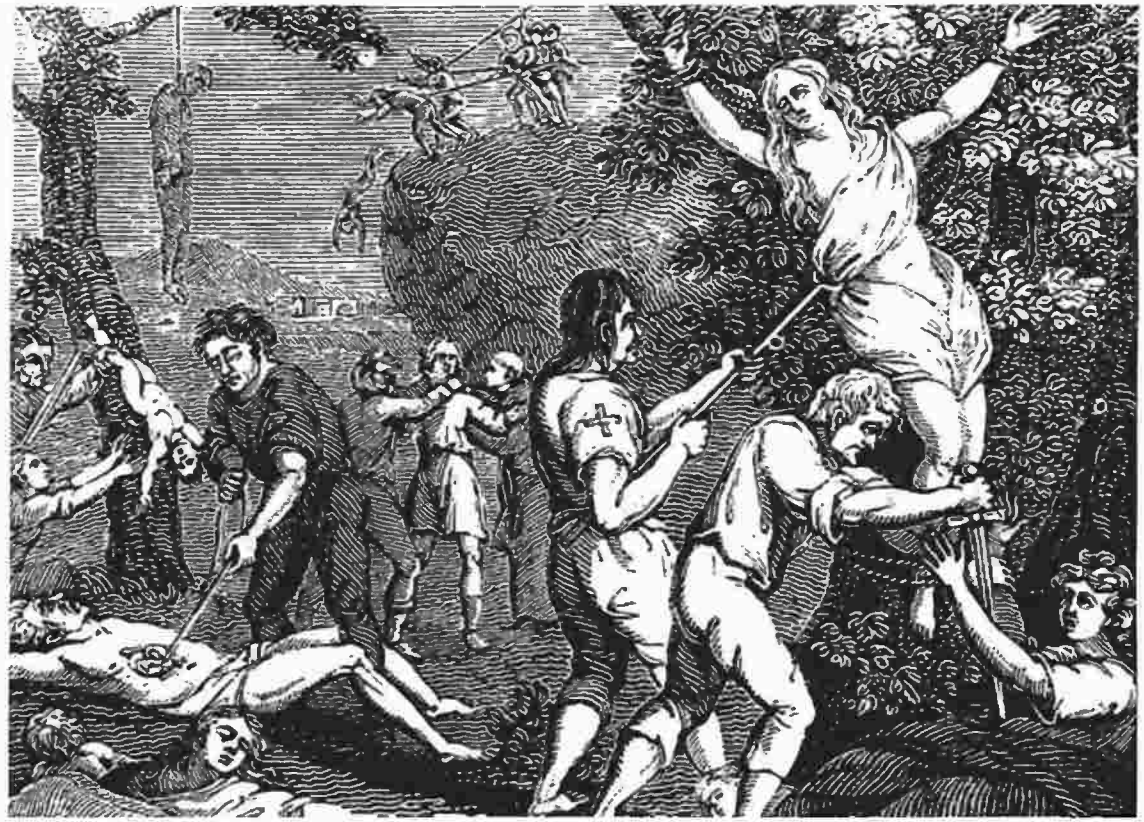

مذبحة البروتستانت في كالبيرا

مذبحة يوم عيد القديس بارثلميو، فلقد حوّل وجود فرعين رئيسين للمسيحية - كل فرع منهما يرى عن قناعة أن طريقه هو الطريق الوحيد إلى الرب - أوربا إلى حمام دم.

وكانت وجهة نظر البروتستانت نحو عبادة القديسين وعبادة مريم - التي كان نغمة شخصية كثيفة - على أنها شكل من أشكال الوثنية، وأنها أزالت انتصار يسوع الذي صنعه وحْدَهُ، وكأفراد آمنوا أنه ينبغي تطوير علاقة دقيقة مع الرب من خلال كلمة الكتابات المقدسة، بدلاً من أن يكون ذلك من خلال نصب صور للمسيح، ومريم، والقديسين، أو حتى من خلال الرموز، ومثلما قام مسيحيو القرن الرابع بتدمير متعمد للأماكن المقدسة وللتماثيل العائدة إلى تقاليد أكثر قدماً، قام الآن رعاع البروتستانت، لدى إثارتهم وتحريضهم من قبل الوعاظ، وبخطابات ذات مسؤولية علنية عامة، فدمروا تماثيل القديسين[4] وبسبب أن البروتستانتية أنكرت بعنف الحاجة الضرورية للكنيسة كوسيط بين الفرد والرب، فقد أزالت معظم الوسائل، التي من خلالها يمكن أن تتطور علاقات مباشرة وشخصية.

وأزالت الإصلاحات الكاثوليكية أيضاً عبادة القديسين، وبات ينبغي أن ينظر إلى القديسين على أنهم شخصيات بطولية، ومثل عليا للأخلاق والفضائل، وليس كأصحاب أو جالبين للنفع[5]، لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت متأبية رافضة للتخلي عن السلطة التي بنتها خلال قرون، وصحيح أنه ينبغي أن يكون مصدر الإيمان المسيحي هو التوراة، ولكن - كما أعلن مجمع ترنت - كان كتاب التوراة قد شرح وأوضح بالشكل الأفضل من قبل «شهادات الآباء المقدسين المعترف بهم، والمجامع، وأحكام الكنيسة وإجماعها»[6]، وكان الكاثوليك على غير استعداد للتخلي والاستغناء عن الطقوس وعن الطبيعة اللاهوتية لقداسات الكنيسة، ومن جانب آخر، رفض بعض البروتستانت رفضاً كلياً الطقوس وقداسات القربان، وأصروا على أن الإنسان ينبغي عليه أن يكتشف الرب ويلاقيه بدقة فقط من خلال الوعظ، أو قراءة الكتابات المقدسة[7].

واعتنق قادة البروتستانت بحماسة شديدة أفكار القديس أوغسطين حول الإرادة الحرة والقضاء والقدر، أي أن سقوط آدم من الجنة قد ترك البشرية ناقصة ومعيبة بالوراثة، وغير قادرة على التصرف أو العمل بشكل صحيح، وهكذا معتمدة بشكل مطلق على رحمة الرب، فالخلاص بات الآن ممكناً فقط من خلال نعمة الرب، وليس من خلال القرار الفردي، وقد قال لوثر في عام 1518م: «إن الإرادة الحرة بعد السقوط هي لاشيء سوى كلمة، حتى عمل ما فيه كذب، يجعل الإنسان

يقترف ذنباً مميتاً»[8]، واعتقد معظم الكاثوليك أنه في الوقت الذي مال بنا ذنب آدم نحو الشر، وأزال إرادتنا الحرة، لكن ذنبه لم يدمر إرادتنا الحرة تماماً، فقد جاء في الفقرة الرابعة من قرارات مجمع ترنت ما يلي:

«إنه إذا ما قال أي واحد بأن الإرادة الحرة للإنسان، تتحرك وتثار من قبل الرب، وأنه لا يمكنه التعاون مطلقاً بإعطاء موافقتها إلى الرب عندما يسأله ويدعوه. . . . . وأنه لا يمكنه أن لا يوافق، إذا ما أراد ولكن هو مثل مخلوق فاقد القدرة والحيوية، وهو جامد غير فعال تماماً، وسلبي، مثل هذا ينبغي تكفيره»[9].

ومع أن البروتستانت افتقروا إلى المراتب اللاهوتية الكاثوليكية المنظمة، حتى يتمكنوا من تحديد من هو أحسن من، استمروا في الإيمان بالطبقية الإنسانية، فقد آمن مارتن لوثر أن الفوارق بين الذكر والأنثى، وفي الطبقة، والعرق، والعقيدة، تشير إلى الوضع المتفوق للمخلوق أو الوضع المتدني، فقد كتب في عام 1533م، يقول: «تبدأ الفتيات بالكلام وبالوقوف على أقدامهن أسرع من الصبيان، بسبب أن الأعشاب تنمو دائماً بسرعة أكبر من المحاصيل الجيدة»[10]، وفي عام 1525م دعم القمع الذي لم يعرف الرحمة لحرب الفلاحين، وهي ثورة ساعدت دعوته وحماسه للاستقلال عن الكنيسة الكاثوليكية على إشعالها[11]، ومع أن لوثر لم يجد نصاً مقدساً يرخص إبادة اليهود، آمن بأنه ينبغي استعبادهم، أو الإلقاء بهم إلى خارج الأراضي المسيحية، وأنه يتوجب إحراق أحيائهم وكنسهم[12]، وقد آمن بأنه ينبغي قتل الثوار القائلين بتجديد العماد، وبلغ فيه الأمر أنه أيد علناً في عام 1531م مرسوماً صدر عن لاهوتيي ويتنبيرغ Wittenberg منح المصادقة المقدسة على إعدامهم[13].

ولم يكن القادة البروتستانت الآخرون أكثر اعتدالاً، فقد كتب جون كالفن Calvin الذي شكلت عقيدته قاعدة الكنيسة البروتستانتية المشيخانية:

«إن المبدأ السرمدي، الذي قرر الرب به الذي سوف يصنعه مع كل إنسان، هو أنه لم يخلقهم سواسية، بل عين بعضهم لحياة خالدة، وعين آخرين لإدانة خالدة»[14].

وأسس كالفن في جنيف دولة بوليسية لاهوتية، طاغية بعنف وقوة متناهية، ولعل أحسن ما يمكن تذكره عنه هو إحراق الطبيب المعروف والواسع الشهرة مايكل سيرفيتوس Michael Servetus بسبب رفضه آراء المسيحية ووجهات نظرها، وأدان

جـون نوكـس Knox ، تلميـذ كـالفن جميـع العقـائد الأخـرى ، فعندمـا تمـزق البروتستانت ، ادعت كـل فرقـة جديـدة امتلاكـها الحقيقـة الربانيـة الوحيـدة ، وأدانـت جميع الآخرين.

وقـام كـل مـن البروتسـتانت والكـاثوليك ، مماشـاةً لاعتقـادهم في رب صـاحب سلطة مسؤولة بالدفاع عن فرض دقيق لتصوراتهم لشرائع الرب ، وكانت الكاثوليكية قد أسست - منذ زمـن - الوسـائل التـي بـها يشـرفون علـى المجتمـع وفـرض الطاعـة ، وافتقـر البروتسـتانت - علـى كـل حـال - إلـى البنـاء القضـائي المتطـور بشـكل جيـد ، والطبقات اللاهوتية مثل الكنيسة الكاثوليكية ، وافتقروا أيضاً إلى وسـائل الانتشـار أو الوصـول العالميـة ، وعوضـاً عـن ذلـك نقلـوا فـرْضَ مبـادئ الفضيلـة الشـخصية إلـى الدولة ، حيث توجـب الآن علـى الدولـة أن ترعـى تطبيـق مبـادئ الفضيلـة الأخلاقيـة النقية ، وذلـك بصـرف النظـر عـن أعمالـها الدنيويـة[15] ، وأخـذت الوحـدة الأسـروية الداخليـة المحكومـة مـن قبـل الأب ، أهميـة جديـدة علـى أنـها الأصـل الجُزيئـي للبنـاء السلطوي.

وأزال كل من البروتسـتانت والكـاثوليك أهميـة دور الجماعـة ، جـاعلين الأمـر أسهل بالنسبة لكل من الكنيسة والدولة لامتـلاك إشـراف مباشـر أكثـر مراقبـة للفـرد ، ولم يشجع الإصلاح الكنسي الإخوانيـات التـي زودت في العصـور الوسـطى أفرادهـا وقت الضرورة بما احتاجوه ، مثل الاحتفالات المنظمة والألعاب ، ومساعدات العنايـة من أجل الفقراء ، وإقامة المشافي[16] ، وكانت الأعياد الجماعيـة أساسـية وحاسـمة مـن أجل الوئام الاجتماعي وفي سبيل حيويته وخصبـه ، لكنـها بـترت الآن وقطعـت ، أمـا بالنسبة للاعتراف الكاثوليكي الذي كان عملاً علنياً للغفران ساعد على إعادة المذنـب إلى الجماعة ، فقد أصبـح الآن مسـألة سـرية خاصـة بـين الفـرد والكـاهن مـع إحـداث صندوق الاعتراف واعتماده في عام 1565م[17] ، وتمت إزالة دور الأبوة الربانية ، التـي أسهمت في تمتين الأواصر الاجتماعية بوسـاطة طقـوس الصداقـة[18] ، وبـدت حركـة الإصلاح الكنسي المقدرة على التدخل لدى سلطات الكنيسة ، أو الدولة ، أو السـيادة الأبوية للأسرة.

وأحلت الحركات الإصلاحية الكنسية لكل من البروتستانت والكاثوليك محـل المكانة المهمـة للوئـام الاجتمـاعي ، الإلحـاح علـى النظـام الربـاني والطاعـة ، وأخـذت

الوصايا العشر مكان عقيدة الذنوب السبعة المميتة التي شكلت قلب الفضائل الأخلاقية للعصور الوسطى وهي: التغطرس، والحسد، والغضب، والجشع، والزنا، والكسل، والفسوق، ومن بين هذه الذنوب التي دمرت مشاعر الجماعة، عدّ الأسوأ بينها: الغطرسة، والحسد، والغضب، والجشع، وكان - على كل حال - الأكثر أهمية بين الوصايا العشر، هو ليس أن يرفع الإنسان من شأن الوئام الاجتماعي بل السلطة الأبوية والمدنية، أي «أكرم أباك وأمك»[19]، ووصلت بعض القوانين في إنكلترا الجديدة المتطهرة إلى حد إصدار مراسيم بعقوبة الإعدام على الشاب الذي يلعن والديه أو «يضربهما»[20]، وبات الذنب الذي ينظر إليه على أنه شيء يفسد الوئام الاجتماعي، هو عدم تقديم الطاعة للسلطة[21].

وأصبح الإصلاحيون مدركين ليس فقط للمقدار القليل من الاحترام الذي تتمتع به الكنيسة، ولكن المدى الواسع الذي كان فيه عامة الناس جاهلين للمسيحية الأرثوذكسية القويمة، ووصف في عام 1547م ستيفن غاردنير Gardner أبرشية في كمبردج بقوله: «عندما يمضي القس إلى المنبر ليقرأ الذي كان قد كتبه، وقتها تمضي حشود الأبرشية مباشرة إلى الخارج، وتغادر الكنيسة وتذهب إلى بيوتها لشرب الخمرة»[22]، وروى المؤرخ كيث توما Keith thomas كيف أنه عندما كان قسيس في اسكس Essex «يعظ في عام 1630م حول آدم وحواء واتخاذهما لنفسيهما رداءين من أوراق شجر التين، أراد واحد من أهل الأبرشية أن يعرف بصوت مرتفع، من أين حصلا على الخيطان للخياطة بها»[23]، وباتت الأرثوذكسية المسيحية القويمة غريبة بشكل خاص بالنسبة للناس في المناطق الريفية، وقد كتب جون نوردن Norden في عام 1607م يقول:

«في كثير من المناطق التي سافرت إليها، حيث هناك مساحات كبيرة وشاسعة من الأراضي المهملة، والجبال، والأراضي البور. . العديد من الأكواخ المشيدة، وينصرف الناس نحو بذل القليل من العمل أو لا شيء، يعيشون ببؤس شديد على خبز الشوفان، ومصل اللبن الحامض، وحليب الماعز، ويقطنون بعيداً عن أية كنيسة أو بيعة، وهم جاهلون لا يعرفون الرب أو أي سبيل للحياة مثل المتوحشين كثيراً بين الكفار».

وفي التعامل مع وثنية عامة الناس، ركز البروتستانت والكاثوليك أثناء الإصلاح الكنسي على التبشير بمبدأ وجود رب سماوي واحد، وفي مقابل فهمهم

للألوهية خلال أوجه متعددة وهو الذي يمكن الإحساس به في كل جانب من جوانب الحياة، علّم الناس الآن أن يفهموا الرب ويتصوروه بدقة بمثابة أب سماوي، لم يعد أبداً جزءاً من العالم المادي أو مهتماً به، ورست الروحانيات أو العلاقة مع الرب، في رفض المتعة الجسدية، التي لم تشتمل مشاعر المتعة الجسدية فقط، بل الراحة أيضاً، وذهب ترونسون Tronson في أواخر القرن السابع عشر إلى حد الإعلان:

«إنك إذا أردت أن تكون وارثاً ليسوع والفردوس العائد إليه، وإذا أردت أن لا تدان إلى الأبد، بل أن تكون سعيداً دائماً أبداً في الجنة، وقتها عليك التخلي عن الدنيا نهائياً، وأن تقول لها وداعاً إلى الأبد»[25].

وبات أيضاً من المتوجب رفض الجسد المادي أيضا، بما أن الرب لم يعد موجوداً في العالم المادي، وعليه فإن الجسد ليس ربانياً، وتبارى البروتستانت والكاثوليك مع بعضهم بعضاً حول الحدود الدنيا التي يمكن بها العناية بأجسادهم، مستخدمين قليلاً من الصابون والماء خلال أيام الحياة[26]، وأوضح واحد من رجال الجيزويت في العقد الأول من القرن الثامن عشر بأن «الاعتدال الديني» يكفي بأن تمنع أي واحد من الاستحمام، وروى حكاية عن واحد خرق التحريم، وكتب يقول:

«تجرأ شاب على الاستحمام في واحد من بيوت بلادنا، فغرق هناك، ولعل هذا كان بموجب القضاء الرحيم للرب، لأنه ربما رغب في أن يستخدم هذا المثل المرعب بمثابة قانون»[27].

ونصحت موعظة قداس كاثوليكي من حوالي عام 1700م الإنسان «أن يعامل جسده وكأنه عدو لدود، وأن يخضعه ويسيطر عليه من خلال العمل، والصوم، والمسوح من الشعر، ووسائل الإماتة الأخرى للجسد»[28]، وحذر رئيس دير سوربوني ولاهوتي اسمه يوسف لامبيرت Lambert عوامَّ الأرياف وأنذرهم بقوله:

«عليك أن تعد كل نوع يلمس جسدك أو أجساد الآخرين، وكل حرية بمثابة الذنوب الأكثر وقعاً، ومع أن هذه الأعمال الفاسقة قد تكون بالفعل سرية، إنها ممقوتة بنظر الرب، الذي يراهم جميعاً، ويغضب من اقترافهم، ولن يمتنع مطلقاً عن معاقبتهم بالشدة الأعظم»[29].

مع أن المسيحية الأرثوذكسية القويمة عدت ممارسة الجنس لمدة طويلة لأي قصد غير الإنجاب هي إثماً، وخلال الإصلاح الكنسي فقط علم معظم عامة الناس

بهذا وعرفوه، والتاريخ المسيحي متخم بالإدانات لممارسة الجنس من قبل البشر، وفي القرن الخامس طور القديس أوغسطين نظرية ليس فقط كيف ينتقل الذنب من جيل إلى جيل بوساطة ممارسة الجنس، ولكن أيضاً كيف أن الرغبة الجنسية في نفسها برهان على انعدام حرية الإرادة لدى الإنسان، وكتب واحد من قضاة محاكم التفتيش في القرن السادس عشر، يقول بأن: «الرب قد منح الشيطان سلطة أكبر على العمل التناسلي، الذي بوساطته حدث الذنب الأول، وليس بسبب أية أعمال بشرية أخرى[30]، وأخذ الإصلاحيون الكنسيون مثل هذه الميول، وقاموا بتحريض الناس العاديين بالامتناع عن المتعة الجنسية حتى من خلال الزواج من جنس آخر، وأصبح عملاً شائعاً - على سبيل المثال - اقتباس رأي جيروم بأن الزوج يقترف الإثم إذا ما تمتع بالجنس مع زوجته كثيراً[31].

وأصبحت المتعة الآن من أي نوع عملاً ممقوتاً، ولقد أدان غريغنون دي مونتفورت Grignon de montfort الذي كان من رجال التبشير الكاثوليكي أغاني الحب، والحكايات، والرومنسيات «التي انتشرت مثل الطاعون. . . وأفسدت بذلك كثيراً جداً من الناس»، وكرر واحد من كبار كهنة القرن الثامن عشر من الأوغسطينيين إدانته وشجبه للاحتفالات العامة، «ذلك أن الأعمال العامة والممارسات هي بالوراثة معارضة لروح المسيحية»، و«وتعطي الألعاب دروساً خطيرة فقط» و«الألعاب هي مصدر خلافات واضطرابات أيامنا»[33]، وفي القرن السابع عشر في إنكلترا الجديدة، حيث تحكم المتطهرون بالمجتمع كثيراً، قاموا بتحذير أو بالحري، بإنزال العقوبة الفعلية بأي شاب أمسك وهو يتزلج، أو هو يسبح، وأية بالغين أمسكوا ببساطة وهم يمتعون أنفسهم، في الوقت الذي عليهم شغل أنفسهم بمشاغل أفضل»[34]، وعدّ قيام الإنسان بتمتيع نفسه في يوم السبت إثماً عظيماً، وحرم قانون صدر في ماساشوسيتي(*) Massachusetts في عام 1653م التمشي في يوم الأحد وزيارة الميناء، وعدّ إضاعة للوقت، وجرى التحذير من لعب الأطفال أو جولات النزهة للشباب والشابات، على أساس انشغالهم في «أشياء تقود إلى إهانة الرب كثيراً، وإلى الاستخفاف بالدين، وخرق حرمة يوم السبت المقدس»[35]، وأحضر

(*) إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية في إنكلترا الجديدة على المحيط الأطلسي.

جون لويس وساره شابمان Chapman إلى أمام المحكمة في لندن الجديدة في عام 1670م لأنهما كانا «جالسين معاً في يوم الرب تحت شجرة تفاح في بستان غودمان شابمان Goodman Chapman»[36].

وكان التمتع بالجمال البدني والجمالية مثل ذلك أمراً ممنوعاً، ونظر معقل التطهير في إنكلترا الجديدة نظرة تقطيب وعدم رضا في القرن السابع عشر، نحو التزيينات من أي نوع، وكان الأثاث والمساكن فجّةً وبدائية بالمرة، وعدت الثياب الجميلة إثماً، ومنعت المحكمة العامة في 1634م الملابس:

«التي عليها أي شريط تزييني، أو خيط من الذهب أو الفضة.. وكذلك جميع الأعمال المقصوصة، أو المطرزة، أو أعمال الإبرة، وأغطية الرأس، والأربطة، والمشاجب.. وجميع الأحزمة الذهبية والفضية، وأربطة القبعات، والمشدات، وأطواق الرقبة المكشكشة، وقبعات جلد السمور»[37].

وكانت الملابس التي تبيح جسد الانثى غير قانونية، وفي عام 1650م حرم قانون في إنكلترا الجديدة «الأكمام القصيرة، التي من الممكن أن ينكشف فيها الذراع العاري»[38]، ووصل المسيحيون إلى اعتقاد أن أي شيء يجذب الانتباه إلى العالم المادي كان لا ربانياً.

وأنتج مفهوم الانفصال الكامل والدقيق للبشرية عن الرب السماوي، شعوراً كبيراً بالخجل أثناء حركة الإصلاح الكنسي، ولقد أعلن إغناطيوس أوف لويولا Ignatius of Loyola مؤسس اليسوعية:

«أنا مجرد روث، وعليّ أن أسأل ربي أنني عندما أموت أن يرمي جسدي على كومة من الروث، من أجل أن ألتهم من قبل الطيور والكلاب.. أو ليس هذا يشكل رغبتي في أن تكون عقوبتي من أجل ذنوبي»[39].

وكتب كالفن:

«نحن جميعاً عُملنا من طين، وهذا الطين ليس هو فقط على طرف ثيابنا، أو على نعال أحذيتنا، أو في أحذيتنا، بل نحن مليْئون به، ونحن لا شيء سوى طين وقذارة في كل من الداخل والخارج»[40].

آمن جون نوكس مؤسس الكنيسة المشيخانية بأن العالم المادي غير رباني، وقد أدان الإصلاحيون البروتستانت المتعة من أي نوع: الجسدية، والجنسية، أو التمارين الرياضية.

وفي منتصف العقد الأول من القرن الثامن عشر وعظ اللاهوتي الكالفيني جوناثان ادواردز Jonathan Edwards قائلاً:

«أنت مجرد مخلوق بائس وخسيس، وعلقة، ومجرد لاشيء، وأقل من لاشيء، حشرة شريرة، انبعثت بتحد ضد جلالة السموات والأرض»[41].

وعلى الإنسان التعامل مع طبيعة الشر الفطرية فيه، من خلال الالتزام والانضباط، والتأديب والصراع، ومجد الإصلاحيون الكنسيون الانضباط والصراع، على أنَّهما معياران للروحانية الشخصية والربوبية، حتى يمكنهم أن يُعلموا بشكل أفضل الانضباط وشرائع الرب القدير إلى أهل أبرشياتهم، وصارت العقوبة الذاتية وسيلة لتجنب السلوك المذنب، بدلاً من عمل كفارات عن ذنوب جرى اقترافها[42]، وأكد المتطهر كوتن ماثر Cotton Mather القيمة الكبيرة للعقوبة، وردد أصداء قول أوغسطين «أرغمهم على الدخول» مع عبارته المشهورة: «استخدام السوط أفضل من اللعنة»[43].

وطبعت المعاناة والشدائد الحياة الحقيقية للأرثوذكسية القويمة، ولم يفهم العمل الأعظم ليسوع على أنه معجزاته في الشفاء، أو ثورته الشجاعة ضد الظلم، بل آلامه وموته على الصليب وطوبت الكنيسة أفراداً وعدتهم قديسين ليس بسبب سهولة إنجازاتهم، لكن بسبب آلامهم واستشهادهم، وكما كتب الشاعر صاحب نشيد الروحَ: على الإنسان «أن لا ينظر إلى المسيح من دون صليب»، و«الآلام هي كبد الذين يحبون. . . »[44]، ووعظ في القرن السابع عشر أنطويني غوديو Antoine Godeau قائلاً: «ينال المسيحي الحقيقي المتعة بامتلاكه بعض البلوى ليتألم، بسبب أن البلوى هي رباط المسيحي الحقيقي»[45].

وأصبح السحر، أو الاعتقاد بأن الرب يمكنه أن يتدخل ليجعل الحياة المادية أسهل، علامة مؤكدة على الكفر وعدم الإيمان بربوبية أثناء الإصلاح الكنسي، فالرب حكم من الأعلى وطلب عملاً شاقاً ومعاناة، وآلاماً، وكما قال المؤرخ كيث توماس Keith Thoams: «كان على الإنسان أن يكسب خبزه بالتعرق وتقطيب الجبين»[46]، وجرى أيضاً تصور السحر على أنه محاولة رعناء لتجسيد الرب، لأنه، كما تساءل في عام 1554م واحد من الإصلاحيين الكنسيين قائلاً: «إذا كان بإمكانك أنت وأنت مرتاح أن تعمل مثل هذه الأشياء لطرد الشيطان وإبعاده، ولتتعامل مع

الجسد والروح ما هي حاجتك إلى المسيح ؟»[47]، وتبعاً لفرانسيس بيكون Francis Bacon من القرن السابع عشر، ينبغي تجنب المعالجات السحرية، لأنهم: «يقدمون هذه المؤثرات النبيلة التي غرسها الرب في الإنسان حتى يجري ابتياعه بثمن التعب لكي تجري رعايته بوساطة بعض الملاحظات السهلة والرخية»[48].

وكتب جون كوتا John Cotta، وهو طبيب إنكليزي من الحقبة الزمانية نفسها، يقول:

«ما أعطى الرب شيئاً إلى الإنسان، إلاّ من خلال الكدح والآلام، وفقاً لأعماله الشاقة، والعناية، والحكمة، وحسن التدبير، والكد، والمواظبة، ووضع فيه كل شيء صالح، ولم يأمر بالكرامات والمعجزات لتزويد ورفد حاجاتنا العامة، أو لتلبية المناسبات الخاصة، أو استخدامات حياتنا».

وكان هذا كله جديداً بالنسبة لمعظم أوربا العصور الوسطى، فقد كان كثير من الناس ما يزالون يؤمنون برب متعدد الوجوه، من الممكن دعوته للمساعدة في حياة كل يوم، ولما كانت الكنيسة القديمة غير قادرة على تحويل الناس عن مثل هذا الاعتقاد، فقد أسست نظامها الخاص بالسحر اللاهوتي الكنسي[50]، فقد امتلكت الكنيسة سلسلة كاملة من الصيغ، المتعلقة بالصلوات، ودعوة اسم الرب وهي دعوة مصممة لتشجيع مساعدة الرب بشكل عملي، وفي القضايا العلمانية، وكان الاعتقاد قوياً جداً بالإيمان بقدرة الكلمة المتفوهة، وعلى سبيل المثال لم تشجع الكنيسة الناس على الحفظ الدقيق للذي كان الكاهن يقوله، خوفاً من أن يكونوا قادرين على استخدام مثل هذه الكلمات القوية لعمل سحرهم الخاص[51]، وكان الاعتقاد قوياً جداً أن الحنث باليمين سوف يجلب انتقام الرب، وأن الكنيسة اعتمدت على أمانة الشاهد في تقديم الشهادة، بعد أن قام هو أو هي بأداء القسم على الكتاب المقدس أو على آثار مقدسة[52]، وما زال الاعتقاد بالقوة السحرية للكلمة منتشراً في انكلترا البروتستانتية إلى حد أن البرلمان أجاز في عام 1624م قانوناً حرم الإقسامَ واللعنات[53].

وعلى عكس مصادقة كنيسة العصور الوسطى على السحر، تمرد البروتستانت بحدة متناهية - كما كتب كالفن - ضد «إدعاء الكاهن بوجود قوة سحرية في القرابين المقدسة، مستقلة عن فعالية الإيمان..»[54]، وأعلن جيمس كالفهل James Calffihl الكالفيني بأن أخبث السحرة والمشعوذين على الأرض كانوا هم:

يسخر هذا الكاريكاتور من طبيعة القداس لدى الكنيسة الكاثوليكية، وكان واسع الانتشار بين البروتستانت في إنكلترا، وهولاندا وألمانيا لمدة تزيد على قرن من الزمان، وفيه الأدوات التي استخدمت في العبادة الكاثوليكية وقد تألف الجسد من القبعة التي هي ناقوس الكنيسة وقد زين بالماء المقدس، والفم هو قارورة خمرة مفتوحة، والعين هي كأس قربان مغطى بماء مقدس، والوجنة هي صحن يستخدم في قداس القربان، والكتف كتاب القداس.

«الكهنة الذين يكرسون الصلبان، والرماد، والماء، والملح، والزيت، والقشدة، والأغصان، والعظام، والعصي، والحجارة، والنواقيس المسيحية المعلقة في أبراج الكنائس، ومناشدة الديدان التي تزحف في الحقول واستحضار أرواحها، وإعطاء إنجيل يوحنا حتى يعلق حول رقاب الناس».

وهاجم البروتستانت القداسات على أنها لا تثبت شيئاً بقولهم بأنها:

«مجرد شعوذة شيطانية ظاهرة، وسحر، وخداع، وحيل، وكل ما هو لا شيء مجرد عبث، حيث يقوم الكاهن بتمتمة بضع كلمات لاتينية على الطفل، فيسحره، ويصلب عليه، ويلطخه بزيت آسن وبابوي نتن، ويربط قطعة من الكتان حول رقبة الطفل، ويرسله إلى البيت . . .»[56].

وكتب جون كاني John Canne في عام 1634م: «إن قداسات القرابين لم يأمر بها الرب لتستخدم . . . كسحر وشعوذة»[57].

ولم يخضع السحر إلى ما شهد به الإصلاحيون الكنسيون، واعتقدوه على أنه فهم زائف للرب، بل تدخل أيضاً مع المذهب الجديد المشير إلى المراتب الاجتماعية، فقد قدر مجتمع ما قبل الإصلاح الكنسي، وحدد مرتبة الرجل إما على أساس منْصَبه داخل المراتب اللاهوتية المتسلسلة للكنيسة أو بوضعه كنبيل أو مقاتل، لكن مع انحدار المراتب اللاهوتية الكنسية ودور النبالة، صار النجاح المالي وأصبح الوسيلة الوحيدة لتحديد مكانة الإنسان في سلم المراتب اللاهوتية، وباتت الثروة هي الرمز إلى عمل الإنسان الشاق، والارتقاء الروحي، مثل هذا «العمل الأخلاقي الطاهر» كان سيتقوض، لو أن إنساناً - على كل حال - يمكنه تحقيق الإزدهار سحرياً.

ولم تقد زيادة أهمية النجاح المالي - على كل حال - رجال الكنيسة إلى تشجيع الناس الفقراء على النجاة من الفقر، أو العمل على تحسين حظوظهم، فقد كان على الفقراء تحمل الظلم المالي من دون اعتراض، وقد أوضح واعظ من القرن السابع عشر أنه:

«إذا كان هناك أناس يسيئون استخدام سلطات الحكام، ويفرضون عليك ضرائب غير عادلة، الرب يسمح بذلك في سبيل فرض عدالته، ومن أجل معاقبة ذنوبك، والاستخدام السيء الذي تعمله في استخدام ممتلكاتك»[58].

بشر الإصلاحيون الكنسيون بأن الرب لم يعد له دور في العالم المادي، وصار العالم هو مملكة الشيطان وحده مع أعوانه مثل المرسوم هنا على قطعة من الخشب، وبات الآن أي شيء سحري أو غير طبيعي هو عمل شيطاني.

وحثت ترتيلة تبشيرية من القرن الثامن عشر، اسمها «نصيحة للناس العـاملين» الناس ونصحتهم بتحمل أوضاعهم الحياتية بهدوء:

لا تتألم لتشكو،
من آلام الحياة الصعبة.
ولا يكن لديك حَسَدٌ
للذين يسكنون في الأعالي[59].

وأن تعتقد بأنك يمكنك أن تغير وضعك وحالتك من خلال أية واسطة غير العمل القاسي والكفاح، وأن تؤمن بوجود مساعدة ربانية، يومـيء إلى التصادم مع الشيطان، وبشر الإصلاحيون الكنسيون وقالوا بأن الرب هو في السماء، وليس على الأرض، ولذلك فإن أي نشاط متفوق وغير اعتيادي في العالم المادي، لا يمكن أن يكون سوى عمل إبليس وشياطينه، وفي الحقيقة وصل الاعتقاد الكلي بالشيطان والخوف منه، إلى الذروة خلال الإصلاح الكنسي، وقد روي أن مارتن لوثر دخل في صراعات بدنية مع الشيطان وقد كتب: «نحن جميعاً خاضعين للشيطان في كل من الجسد والصلاح..»[60]، وتبعاً للوثر «الشيطان يعيش فيك، ويحكم في خلال العالم كله..»[61]، وقال جين كالفن بأن على القديس المسيحي الحقيقي أن ينخرط في «صراع غير متوقف ضده»[62]، ودعا جون نوكس الشيطان بـ «الأمير ورب هذا العالم»[63]، ورددت ترتيلة التعليم الشفهي المفرغة في قالب السؤال والجواب أهمية الاعتقاد بالشيطان:

كثيرون يتصورون أن القضية كلها خيالية،
وبما أنهم لا يعتقدون ذلك، هم لا يقاتلون أنفسهم
وهذا يعني أنهم واقعون تحت سلطان
الشيطان، وليس لديهم فضيلة مسيحية
ولهذا فإنَّ الشيطان لا يحتاج إلى إغوائهم
بما أن أرواحهم هي مقر سكنى الشيطان[64].

وأصبح الإيمان بالشيطان نظيراً جوهرياً للإيمان بالرب، وقد كتب البروتستانتي روجر هتشنسن Roger Hutchinson:

«إذا كان هناك رب، ينبغي أن نؤمن به بثقة وثبات، وبلا ريب هناك شيطان أيضاً، وإذا كان هناك شيطان، فليس هناك حجة أكثر تأكيداً، ولا برهان أقوى، ولا بينة أوضح بأن هناك ربّاً»[65]

وأوضح كاتب آخر «إنَّ الذي لا يؤمن بوجود شيطان، عليه قبل ذلك بكثير أن يؤمن أنه ليس هناك رب. .»[66].

ومثلهم مثل المانويين الأوائل، ألح الإصلاحيون المسيحيون على الإيمان بالشيطان، بقدر إن لم نقل أكثر من الإيمان بالرب.

وذكرت على سبيل المثال ترتيلة التعليم الشفهي المفرغة في قالب السؤال والجواب، لكانيسيوس Canisius اليسوعي، ورددت اسم الشيطان أكثر من ترادادها لاسم يسوع[67].

وتزايدت قوة الشيطان المتصورة نسبياً مع انتشار المسيحية الأرثوذكسية القويمة، وصار الاعتقاد بالشيطان وسيلة لإرعاب الناس في سبيل تحقيق الطاعة، ولم يكن رجال الكنيسة العائدين للإصلاح الكنسي يختلفون عن الأوائل من المسيحيين الأرثوذكس الذين عدوا الخوف أمراً لابد منه، وفي 1674م نصح كريستوفي سكرادر Christophe Schrader الوعاظ الآخرين بضرورة أن يمتلكوا:

«خوفاً عظيماً من الرب الكلي القدرة والعظيم الذي طرد الملائكة العصاة من الجنة، وآباءنا الأولين من الجنة، ودمر العالم كله تقريباً بالطوفان، وأطاح بممالك كاملة وبمدن»[68].

والشيطان هو بالضرورة نظير مقابل لهذا الرب «الكلي القدرة والعظيم»، ويقوم الشيطان بتنفيذ أحكام الرب، فيعذب المذنبين إلى الأبد، وهو مثلما دعاه الملك جيمس الأول «جلاد الرب»[69].

ومثلما هو حال كثير من العقائد الأرثوذكسية والأفكار، جعل الإيمان بالشيطان الناس يشعرون بأنهم لا حول لهم ولا طول، وبعزو الشرور والسلبيات إلى الشيطان، تمت بذلك إزاحة المسؤولية عن بني البشر، وكذلك القوة التي ترافق المسؤولية، لأنه إذا كان أي واحد مسؤولاً لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً سوى أن يقبع مرتجفاً في خوف، أو رعب من هجوم الذين يمثلون الشيطان، ومثل الإيمان

بانعدام حرية الإرادة البشرية، يولد الإيمان بالشيطان الشعور بالعجز المطلق، مما يجعل الناس من السهل التحكم بهم.

وجلب الإصلاح الكنسي تغييراً عميقاً ومثيراً، فقد ادعت أمم وسلطات إمبراطوريَّة استقلالها عن البابا، وتغير البنيان الاجتماعي للعصور الوسطى، وكذلك تقدير قيم الأشياء، ولعل الأكثر أهمية هو أن الإصلاح الكنسي غير الطريقة التي تصوّر بها الناس العالم، فالعالم المادي، الذي كان من قبل خلقاً لاهوتياً وسحرياً، بات يفهم الآن على أنه غريب عن الرب، يعود فقط إلى الشيطان، وصار السبيل الروحي، ينبغي أن يحمل علامة المعاناة والكفاح، والضرب والتأديب، وحوّل الإصلاحيون الكنسيون البروتستانت والكاثوليك الذين قاموا بالإصلاح المضاد، حولوا مع بعضهم الناس في أوربا المسيحية الأرثوذكسية القويمة.